القرية التي عرفت الحب

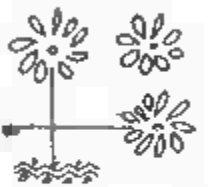

بقلم: محمد جبريل

فجاة . صارت القرية الوادعة وكأنها خلية نحل . ناس تذهب وناس تجيء ، ورجال تأثروا في هذه الناحية وتلك ، وكلام كثير عن محمد سليمان وحكايته المثيرة ..

والحكاية مثيرة حقا ..

فقد كان الشاب عائدا الى بيته ـ ذات ليلة ـ والدنيا ظلام ـ وصادف في طريقه اربعة كلاب تمارس واشاها علاقة حب . ولم يكن في ذلك ما يثيره أو يدهشه ، فقد اعتاد اشياء عند عودته ، كل ليلة ، من دكان الحاج يوسف .. يصادف بعض الأعراب ، يتبادلون الناس الحشيش بعيدا عن أعين الرقباء ، ويرمي سلامه ويمضي . لكم دينكم ولي دين . وتعثر في عشاق بين عبد المولى الحقير الطامي وسنية خادمة بيت العمدة ، فيسلم ويمضي . ولله في خلقه شئون . والكل قربة واحدة .. اسرة واحدة ، ولا غرباء . فعائلة الحمصاني تقيم في الناحية الشرقية ، وعائلة حمص تقيم في الناحية الغربية ، وعائلة ابراهيم القاضي ـ والتي لا يتجاوز عدد افرادها اربعة عشر شخصا ـ تقطن على مجرى النيل . فقط ، ثلاث عائلات والغيطان والكوبري والجرن ومطحن الذرة وشونة تلك التليف ، والبيوت الواطئة من الطين ، والنخيل السامق كعمدة تقاطع السحاب .. وهذا يحبى ، وذاك يسلم ،

وكيف حال حاله تعيسة ، وبقسوة عند التواب مريضة ، وحاموسه ابراهيم تدير الساقيتين . وتعيسة عليها الطلق وفرح لواحظ يوم البت ، ومسعاد الخير يا حضرة العمدة ، وانا حضير البلد انا الكل في الكل .

وهذه الكلاب ، لا شيء يثيره أو يدهشه .. فقد مضى العهد بينه وبين الشقاوة والبطالة . ويبتسم بلا ارادة منه لما يتذكر ذلك الجانب المضيء من حياته .. عنكب يا عنكب وكرة الشراب والطاسة والاستحمام في الترعة وحش القطن وليالي الحصاد . والأذان يعجب في شغف الى حديث يوسف الحولي عن حسان ابن العمدة وكيف دخل على زوجته ليلة دون مناسبة ، والعبارات الجنسية الصارخة التي تقولها سلامة المرناوية فتبادلها الشفاه الصغيرة في لذة وشهوة ، وحادثة ليلى النوبي مع وهيبة العازبة ، انها لازالت عالقة بذهنه كأنها حدثت منذ عهد قريب .. ثم جلوسه والشيخ على المصاطب في هدوء ووقار ، وقد نمت الشوارب ، وغلظت الأصوات ، وتوارت البنات في البيوت ، وأصاخت الآذان سمعها لكلمات خطيرة مثل المنكر والعيب .

وجاور محمد سليمان الكلاب بامتار ، ولم يحاول حتى ان يهش عليها .. ولكن الانثى الحبلى — لسبب لا يدريه — تصنعت الفزع ، وجرت ..

واستحالت شهوة الكلاب حقدا مسعورا على محمد ، تعضه وتنهش لحمه .. والشاب يصرخ ويستغيث ، ويدفع بيديه أفواه الكلاب أن تصيب يده . لم يكن صراخ الشاب مبعثه الألم ، شعله الحرص على يده من ان تنالها افواه الكلاب ، فيموت . نسي الألم ، ولكنه تذكر نصيحة سمعها ، يوما ، بأن يحرص على يده من فم الكلب ، فلا شيء أخطر من هذا . ولما هرعت المشاعل في أطراف المكان ، كانت الكلاب قد عقرت ساقيه وظهر كفه ، ثم جرت ..

ظلت الحكاية أياما ، محورا لأحاديث القرية . قال الشيخ رمانى ان يد الشاب سلمت من الأذى .. فهو أذن سيعيش ! . وهمس بعض العائدين من البندر ، ان جسد الشاب اصبح كالمنخل من الابر الكثيرة التي حقن بها في المستشفى ، وربما يموت ! .

وتحولت الأحاديث — فجأة — من مجرد التعليقات التي ترثي وتشفق وتحلل الأمور ، الى ما يشبه الهذيان الذي لا يجد بداية ولا نهاية ولا رابطا . ففي الجميع محمد سليمان وتذكروا أنفسهم . خطر مفزع ، أغلق الأبواب المفتوحة ، واطفأ الكلوبات السهرانة ، وأمام القرية من المغرب .. فقد ظهر أحد الكلاب عند مدخل القرية ، وعقر طفلا . قال الشيخ رمانى :

— هذه الحادثة لها ما بعدها يا أولاد فالكلاب مسعورة وانتهى الأمر ..

— وماذا نفعل يا سيدنا ؟ .

— أنتم رجال .

— القتل ليس حرفتنا ! .

— ولكنه الآن حرفة الكلاب ..

— فماذا نفعل ؟ .

هز الشيخ كتفيه ، ولم يجر جوابا . استغرقته عيونه موقية عميقة ، صرفته عن الناس ، وعن كل ما حوله .

ونفض عبد المولى الغبار من سلاح قديم وهمه لم يقف الى جانبه ، قيد واحدة لا تصدق . تفحص حسان السلاح جيدا وقلبه بين يديه ، ثم قال في أسى :

ـ لا يصلح لقتل دجاجة ! .

قال عبد المولى :

ـ ان الاناشيد سرق السلاح كله .

ـ عطوة ؟ ..

ـ كاد أول أمس يسرق سلاحي المبرى ..

ـ والحبل ! .

نطق الشيخ :

ـ سأكلم عطوة .

الشيخ رباني يكلم عطوة ؟ ! . يقابله ويسلم عليه ويأخذ منه ويعطي له ؟ .. هل الشمس ما زالت تطلع من الشرق ؟ وهل الكون كما هو ، لم يختل نظامه ؟ وهل حدث الصوفية الشيخ رباني ، فلم يعد يدري من هو عطوة ؟ .

كان عطوة ـ حقيقة ـ واحدا من أسماء القرية . وكان والده الشيخ أمين يخرج الى الغيط ويعود ، مثل كل الرجال ، وعلامة الصلاة كأنها البقعة فوق جبهته . ولكن عطوة لم يعد من أسماء القرية .. أغلق الجميع أبوابهم في وجهه . حتى الشيخ رباني كان ، حين يراه ، يلوي وجهه ويتمتم : لا أكلمك حتى تسلم . بدأ سرقة بعض الأواني النحاسية من بيت وهبة العارية ، وانتهى بسرقة السلاح من القرية كلها ، حتى بأس الأذى .

العجيب العجيب أن الشاب لم يرفع السلاح مرة في وجه أحد . بل ان أحدا لا يستطيع أن يضع الشهادة بأنه هو السارق فعلا .. والشاب يرسم على وجهه ابتسامة طيبة ويقول لعبد المولى :

ـ هل أذيت أحدا ؟ .. هل يملك أحدكم الدليل على أني السارق ؟ ..

ويصرخ فيه عبد المولى :

ـ اذن . ماذا تعمل ؟ .

ـ انصرف .

ـ تهزأ بي ؟ .. سأبلغ المركز وليكن ما يكون ! .

ـ ألا ترى أن بندقيتك ما زالت فوق كتفك ؟ .. ضياع البندقية العيرى حسابه يا عبد المولى .

ويحلق عبد المولى في فزع ، ويتحسس بندقيته فوق كتفه ، ثم يتحول عن الشاب في خطوات ثائرة .

قال الرجال :

ـ أما من حل آخر ! .

قال الشيخ :

ـ لا حل سواه .

ـ نأتي بسلاح جديد .

ـ السفر على مسيرة أيام .. وعطوة على مسيرة لحظات .

ـ هل نفتح له أبواب بيوتنا ؟ .

ـ افتحوا له قلوبكم .

ـ لكنه لص ! .

ـ هل رأيتموه يسرق ؟ هل قتل أحدكم ؟ ..

ـ أنت تردد كلامه ..

ـ ربما . لكنه الحق .

واشاح حسان ـ لأول مرة ـ فى وجه الشيخ رباني ـ بيده ، وصاح فى غضب

ـ لا تضع ايديا فى يد مجرم .

قال الشيخ :

ـ فليرحمكم الله .

.. عطوه فى القرية . صدقيته على كتفه ، وخطواته ثابتة ، والرجال يحالطونه بحذر ، والأعين الملصصة ترقبه خلال البوابة المطلقة . واعطت جودة ابن سكينة الملاءة من باب البيت ليرى عطوة ويسلم عليه ، ولكن أمه جرت وراءه وأعادته وهى تسعل وتحوقل وتلعن أولاد الحرام وروى الشيخ رباني حكايات كثيرة عن عطوة والشقاوة التى دفعته الى السرقة ، ولكنه فى الأصل ابن ناس طيبين .. فوالده الشيخ امين ، رجل ولا كل الرجال ، يعيش على فدان ونصف وحياته مثل الصراط المستقيم . وطالما نصح عطوة ان يرجع الى عقله ويساعده فى الغيط ، ويصب الشيخ على قلب عطوة ، فيعود الى البيت والغيط ، ولكن الطبيعة الشقية ما تلبث ان تعاوده ، فيسرق أى شىء ، ويواصل سيرته الأولى ..

ـ لماذا يا سيدنا ؟ .

ـ حتى يصبح عطوه .

ـ لسنا نفهم ؟ .

ـ حتى لا يصبح الكل عطوه .

ـ تشتمنا يا سيدنا ؟ .

ـ فى القرية اسماء وأسماء ، كأنها درات التراب .. فى القرية عشرات العطوات .. ولكن اسم عطوة عندما يردده الجميع لا يعنى الا شخصا واحدا .

ـ لأنه يسرقنا .

ـ لأنه يثيركم .

ـ تريد ان نسرق ؟ .

ـ حفظ القرآن فى الخامسة أمر مثير .

ـ انه سارق ..

ـ ما معنى البداية والنهاية اذا كان الوسط فارغا ؟

ـ لقد شغله بالسرقة .

ـ لقد امسح الرجل المهم .

.. تفرق الرجال فى الغيطان وبين عيدان الذرة ، وكانوا يطلقون النار على اى جسم يتحرك ، حتى كلب حسان الأرمنت أردته رصاصة . ومر يوم وثان وفى اليوم الثالث قبل يومى بندقيته اول الكلاب ، وكان فى طريقه الى خارج القرية . ثم حاصر عبد الغنى احد الكلاب داخل الحرن القديم ، وضربه بالهراوة حتى مات . والقى عطوة ، عصر اليوم الرابع ، بجثة كلب ثالث أمام الرجال . كانوا أربعة ، هكذا قال محمد سليمان قبل أن يرحلوا به الى البندر . وفى الليل تناهى الى الآذان ، عبر الغيطان الممتدة ، عواء غريب متقطع .. ثم اطلقت سكينة المائطة ـ فى الصباح ـ صرخة ملتاعة ، فقد سطا الكلب على معزتها ومزق بطنها ..

رفع عطوة بندقيته على كتفه ومضى . هم عبد المولى بمرافقته ، لكن عطوة قال فى حدة :

ـ يبدو انه أخطر الكلاب .. دعه لى .

وتقصت السلطات بطئة قلقة حائرة . وقال عبد المولى وهو يتلفت بعينيه الى وجوه الرجال :

ـ أخاف على عطوة .

قال حسان فى ثقة :

ـ عطوة رجل .

وخرج الشيخ من صمته :

ـ عطوة الرجل المهم .

وظل عواء الكلب المتقطع يتناهى عبر الغيطان ، ومالت الشمس الى المغيب ، والرجال فى اماكنهم ، والصمت الرافر يسود كل شىء .. ثم علا العواء فجأة واختلط ، فكانه اصوات عديدة متداخلة ودوت رصاصة ، ثم عاد الصمت أكثر عمقا ، قبل ان يظهر عطوة عند مدخل القرية .

.. سار عطوة فى شوارع القرية ، ورجال وعيال يكلمونه وينظرون اليه ، واحاط حسان خصره بساعده فى مودة ، واختلطت الكلمات والدعابات والضحكات وصخب الديوك بأبوابها ، وظلت الكلاب مصمتة حتى الفجر ، والتف الرجال حول وهيبة العازبة ، حتى انهد جسمها من الرقص .. وقال الشيخ ريانى

ـ ربما اصبح عطوة واحدا من القرية ، وربما اصبحت القرية عطوة .. والأمر يستوى .